



لم يكن الهدف الأساسي من عملية سحق الثورة في سوريا من قبل الديكتاتور باستخدام شتى أنواع الأسلحة الثقيلة هو قتل آلاف الأشخاص بقدر ما كان الهدف قتل الأمل في نفوس ملايين السوريين الطامحين إلى حياة حرة كريمة ومستقبل أكثر إشراقاً بعيداً عن العبودية وتقديس القائد الإله والامتنان لمكرماته.

لقد كان هذا التدمير الوحشي لسوريا الجميلة بدمتها وقرابها عقاباً أنزله الديكتاتور على من تجرأ على الاقرابة من الاهلة المقدسة التي أحاط نفسه بها بمؤسساته الأمنية المرعنة التي جسده كإله.
أليس كفراً أن تشكك بالسلطة الإلهية؟!

أليس إلحاداً أن يكون لك رأي مغایر لما يقرفه القائد إله؟! ألن يحل غضب السماء لو كفرت بالقائد إله؟!

فهذا التدمير والقتل للآلاف أراد تسويق صورته كأنه عقاب إلهي لأولئك الذين طالبوا بالحرية التي تتوق إليها النفس البشرية المستعبدة التي عاشت سنوات طويلة في القهر والذل وغدت متعطشة لحياة ديمقراطية حقيقة تحققت في بلدان كثيرة.

لقد أراد الديكتاتور ومن خلال منظومته الأمنية القمعية التي تطورت خلال عشرات السنين بث شعور في الناس من أن أي عملية تغيير في الحكم أو في المعادلة السياسية هي عملية لا أهمية لها ولا معنى لها، مسوقة للشعب فكرة أنه لا يوجد بديل أفضل منه في هذا الوقت العصي الذي تمر به الأمة!

ظن النظام بأنه يستطيع أن يخلق إحساساً في قلوب ملابين السوريين بأنَّ عملية التغيير القادمة هي عملية عبئية وأنها عبارة عن مضيعة للوقت، فأي قادم جديد وبهذه الإمكانيات المتوفرة في البلد لن يستطيع أن يحمل أكثر مما يحمله هو.

دأب النظام على تخويف الناس بأنَّ عامل الاستقرار الذي نعمت به سوريا لسنوات طويلة هو صناعة وفضل هذا النظام، وإن هذا العامل "عامل الأمان" هو الأكثر أهمية من أي عوامل أخرى كالعامل الاقتصادي وخلق الحريات وتضييق القبضة الأمنية، وهو الأكثر تعرضاً للتهديد في ظل الظروف التي صاحبت البلدان التي شهدت وتشهد ربيعاً عربياً.

فسوّقت أبوابه للناس فكرة أن "الأمان" أهم من رغيف الخبز، فكل شيء يستطيع الإنسان الاستغناء عنه إلا الأمان! وأن ملاحقة النشطاء وسجنهما ونفيهم وتصفيتهم هي عبارة عن عمليات فردية ضدّ أشخاص يهددون أمن الدولة ويرتبطون بأجناد خارجية وليس لها نظاماً أخذ على عاتقه مهمة تحرير الأرض المغتصبة وقادداً لمحور المقاومة والممانعة في وجه الأطماع الغربية والصهيونية.

راح يُخيف الناس من (الفوضى) التي تزامن مع أي عملية تغيير للنظام أو انتقال للسلطة، فشهدت الشهور الأولى للحراك الثوري الإسلامي عمليات نهب وسرقة وخطف، ونسب جمّع هذه الحوادث للمطالبين بالتغيير وحملهم المسؤولية، معتقداً أنه بهذا الشكل سيُخيف الشعب وسيتمّنّ بقاء القائد إله الذي شيد للشعب هذا الوطن ورسّخ هذا الاستقرار وزرع الأمان والاطمئنان في ربوع سوريا، فأخرج الآلاف من موظفي الدولة في مسيرات يومية تمجّد اسم القائد إله وتفديه بالروح والدم، وراح يتبااهي بهذه المسيرات أمام وسائل الإعلام ويتدّاكي على الشعب، في الوقت الذي أصبح هذا النظام أضحوكة وألعوبة بيد الدول.

وعندما فشلت محاولات النظام في إيقاف المظاهرات والاحتجاجات والمطالبة بالتغيير والإصلاح، لجأ إلى الحل العسكري، فأطلق النار على المتظاهرين محاولاً بث شعور الخوف في قلب من سيتجراً على معاودة الخروج مرة أخرى، في الوقت ذاته أطلق عشرات القوانين وفي غضون أيام لكي يقطع حجة من يطالب بالإصلاح، متذاكياً على شعب قمعه أربعين عاماً.

عشرات السنوات لم تكن كافية ولم يجد فيها الوقت الكافي لكي يقدم قانوناً إصلاحياً واحداً! ليأتي الآن في أيام معدودة ويطرح عشرات القوانين والمراسيم وإصدار العفو العام عن المساجين والمعتقلين!

لا بل كتب دستوراً جديداً للبلاد وأنهاء في ساعات معدودة وطرحه في السوق للتصويت لتكون نسبة التصويت كالعادة لصالحه، متنبّطاً في الوقت ذاته بتغييره الحكومات والوزراء ومجلس الرسوم المتحركة الذي كانت مهمته على الدوام التصفيق لكل نكتة ساذجة يتغوه بها الديكتاتور في خطاباته التي تعودنا فيها سماع قهقهته متعالياً مستخفّاً، ليعقب كل قهقهة هتاف وفاء بالروح والدم من قبل مجلس العبيد، ذلك المجلس بجبهته الوطنية التقديمة وقائمة ظلّه الذي كان على الدوام أضحوكة وسخرية الشعب.

.....

عندما باع جميع محاولات النظام بالفشل في احتواء المظاهرات التي كانت سلمية لشهر عديدة، لجأ إلى عسكرة الحراك،

معتقداً أنه سيحسم الثورة من خلال آلته العسكرية الضخمة في أيام معدودة.

ولكي يعطي لنفسه المبرر للحل العسكري صور من طالبه بالحرية والتغيير كإرهابيين سلفيين يحملون أفكار الكراهية وإقصاء الآخر، وأدواتهم للمطالبة بالحرية هي السلاح والتفجيرات والقتل، وكان أربعين عاما حكم فيها "الحزب القائد للدولة والمجتمع" حملت التعذيب ومشاركة الآخر بالحياة السياسية! وكانه هو نفسه عرف الديمقراطية يوما! وكانه وصل للحكم بديمقراطية منتخبة! وكان شبيحته لم تقتل وتفجر وتعتدي وتغتصب وتعتقل وتقطع الرؤوس!.

بدأت كتابته باقتحام الأحياء والقرى واعتقال الشباب من تجاوزت أعمارهم الخامسة عشرة، حرق منازل النشطاء والمنشقين، معتقداً أنه انتصر وأخضع الشعب، ولكنه على العكس، لم يكن يدرى بعد أن حاجز الخوف قد كسر، وأن سنوات العبودية قد ولت دون رجعة، ولبيداً الشعب بالدفاع عن نفسه ويحمل السلاح الذي أدخله النظام بنفسه عبر سنوات طويلة من فساد مدراء وعناصر الجمارك ومخابرات الحدود التي ارتشت واغتنت وبنت القصور والقلاء من خلال الأموال التي كانوا يقابضوها من تجار السلاح والمخدرات، ناهيك عن أن قسماً كبيراً من رؤساء أجهزة فروع الجمارك والمخابرات هم تجار أسلحة ومخدرات، وميناء اللانقية وطرطوس المصدر الأكبر الذي يتم عبره إدخال الأسلحة والمخدرات.

الخيار المقاومة المسلحة كان الخيار الوحيد المتبقى لصد النظام المستبد في ظل عجز دولي واضح عن استصدار أي قانون، لا بل تكونت قناعة لدى الشعب أن من يحمي النظام هي إسرائيل نفسها، فهي لا تريد تغييره ولا تريد لأحد أن يزعزع حدودها الشمالية، وتم توزيع الأدوار في المجتمع الدولي فكل طرف يؤدي دوره تاركاً الشعب السوري يُذبح ويُهجر ويُشرد. بينما في ليبيا تم استصدار القرار خلال الأيام الأولى للثورة الليبية التي لم يجد فيها القذافي الوقت ليعي ما يجري حوله!

.....

لم يعترف النظام السوري في يوم من الأيام بوجود تنظيمات مسلحة تكفيرية، وصرّح الديكتاتور على الدوام في خطاباته ولقاءاته الصحفية بأنها خدعة أمريكية غربية لتبرير الاحتلال والتدخل والسيطرة على مقدرات الشعوب، ولكن عندما ثار الشعب في سوريا أصبح من يقود الثورة والحراك هم سلفيون وإخوان وتنظيمات تكفيرية ومتطرفة تحمل السلاح وتدعوا للجهاد معتمدة أيديولوجية دينية!

ولكن الأسئلة التي تطرح نفسها هي:

حتى لو وجد متطرفون وتكفيريون، أليس حزب البعث نفسه حزباً متطرفاً متعصباً شوفينياً يُقصي الآخر وينصب نفسه الحزب القائد للدولة والمجتمع؟!

ألم يفرض حزب البعث ثقافته وأفكاره بالقوة؟!

ألم يقصي من اختلف معه عن الحياة السياسية وغيره في ظلمات السجون وقتلهم؟!

ألا يحمل البعث أيديولوجية تدعوه لحمل السلاح لاسترداد الحق؟!

ألم يتبنى البعث "كأيديولوجية" العمل المسلح طريقاً وخياراً وحيداً لنهاجه؟!

فما الفرق إذاً بين حزب البعث وبين التنظيمات الجهادية التي يسوق لها النظام بأنها هي البديل وهي من تقود الثورة ويخيف بها الشعب الطامح للديمقراطية والعدالة والحرية والمساواة!

البعث حارب الشعب بلقمة عيشه، فلا يمكن لأحد أن يتوظف إن لم يكن بعثياً، لا يوجد مدير مؤسسة أو مستخدم غير البعثي، ولكي تتوظف كمدرس أو مهندس أو حقوقى أو اقتصادي أو ممرض أو حفار أو زبال فأنت بحاجة لأن تكون بعثياً ولموافقة أمينة.

ويحدثك البعث طوال أربعين عاماً عن محاربته للعنصرية والتطرف والنضال من أجل الحرية ونيل الحقوق وتقديس

إذاً ماذا يختلف التطرف القومي الشوفيني الذي حمله البعث عن التطرف الديني أو العرقي أو أي تطرف آخر؟! لقد أظهرت الثورة في سوريا للعالم الوجه الحقيقي لحزب البعث، فهو الحزب الأكثر تطرفاً وفاشيةً من أي حزب استلم زمام الأمور والحكم في البلدان التي حكمتها ديمكتاتوريات.

لم يكتب التاريخ في يوم من الأيام فظاعة ما يمكن أن يرتكبه نظام حاكم بحق شعبه مثلما فعله في سوريا. صدّع رأسنا بالمقاومة والممانعة وبأنه حامل هموم الأمة العربية وأنه المقاوم الوحيد للامبراليّة وأن كل ما يجري في العالم لأي مطالب بالحرية هي مؤامرات تحاك من قبل الغرب هدفها الوصول لسوريا ومحاولته للنيل من صموده ومقاومته، لكنه في الوقت ذاته جعل حياة السوري جحيمًا لا يطاق.

لقد كانت مجموعاته الإرهابية المسلحة (عناصر الفروع الأمنية المختلفة) لمدة أربعين عاماً تتسلط على المواطنين وترهّبهم، يدخلون المطاعم والتوكالات متسلطين على أصحابها، يبتزون أصحاب المحال التجارية، ولا يمكن أن تخيل أنهم قد يعتقلا أحداً دون دفع المعلوم.

صوّر نفسه المدافع الوحيد عن القضية الفلسطينية وراح يعدد انتصاراته على العدو الإسرائيلي وأن إسرائيل هي العدو الوحيد الذي قتل الشعب العربي وارتکب المجازر المروعة بحق أبنائه، في الوقت الذي باع فيه نظام "المقاومة والممانعة" الجولان متذاكراً على الشعب الذي أخضعه وأخنعته بوحشية وبطش.

والآن يدمر المدن ويمحو قرى بأكملها عن الوجود مرتكباً مجازر مروعة، حتى إسرائيل نفسها لم تقتل وتهجر من الشعب الفلسطيني خلال أكثر من ستين عاماً على وجودها ما قتله وهجّر ما من الشعب السوري خلال عام ونصف! ليكون رغيف الخبز واسطوانة الغاز لمن بقي تحت القصف أقصى ما يمكن للسوري أن يتمناه ويحلم به.

كل ذلك بحجة وجود مجموعات إرهابية متطرفة.

لقد أصبح جميع أفراد الشعب الآن "مجموعات إرهابية مسلحة"! بما فيهم الأطفال والنساء والشيوخ الذين ذبحهم شبيحاته بالسكاكين والسواطير.

.....

لم تكن الثورة في سوريا مسلحة والجيش لم يكن معنياً بما يجري، فالأمر في البداية كانت بسيطة والمطالب سلمية وأغلب المظاهرات كانت عبارة عن أغاني ودبكات ونكات، ولم يكن لأكثر المتشائمين من التغيير أن يتوقع كل هذا الإجرام والقتل والتهجير والتزوح والاعتقال، فأن يصل الجنون بهذا النظام لاستخدام الدبابات والمدفعية والطيران والآن صوراً يسارية لقصص المدن والقرى بهذه الوحشية، ومن رئيس شاب طبيب درس في لندن توقعه الجميع أن يكون ذكياً وأن يلعب دوراً إيجابياً في تمهيده لطريقة نقل السلطة، ويكون وطنياً بما يكفي حتى يتلافي البلد ليس فقط الكارثة التي حلّت به الآن بل كان بالإمكان تلافي أخطاء البلدان التي شهدت ربيعاً عربياً، لكنه خيب ظن كل سوري، وأنهارت الدولة قبل انهيار النظام وأنهيار الدولة أخطر من انهيار النظام، وتم تدمير البنية التحتية للبلد. حرق الورش والمصانع والأراضي والمواسِم، ليتم التهجير والتزوح من أغلب المحافظات السورية، ويصيّب الفقر المدقع جميع أفراد الشعب.

وبعد أن كان الشعب السوري يقدم مساعدات لدول الجوار ويقدم لهم الدواء والماء والكهرباء والوقود والغذاء أصبح السوري العزيز النفس والأبي يستعطف العالم لإعطائه رغيف خبز يسد به رمق أطفاله.

بين ليلة وضحاها وينبأ هذا النظام الوحشي البربري حول الشعب السوري من مستقبل للاجئين من دول الجوار إلى مشردٍ نازحٍ يعيش تحت الخيم في ظروف مناخية تقتل أشرس الكائنات الحية.

قد تشهد سوريا في الأيام المقبلة وحتى الأشهر المقبلة المزيد من سوء الأوضاع الإنسانية والمزيد من المجازر ولكن في النهاية سينتصر الشعب السوري، وسيسجل التاريخ أعظم انتصار يمكن لشعب أن يحققه عبر التاريخ. الشعبُ ناضل في سبيل الحرية، شعب وقف عارياً في وجه آلة الموت والقتل وتحدى البرد والجوع والمرض. نعم انتصر الشعب السوري لذاته وانتصر لأجيال المستقبل، وانتصر لأرواحآلاف الشهداء الذين قدموا أنفسهم قرابين على مذبح الحرية في سبيل سوريا حرّة واحدة أبية.

المصادر: